ها أنت الآن، حضرتك، سجين في صندوق كأنّك في تابوت أموات، معلّق في الهواء بين الأرض والسماء. وقعت كفأر في مصيدة.. بكلّ صفة، حضرتك تشبه اليربوع من ناحية أنفك وشاربك وغياب جبهتك ونتوء أنيابك... ويالها من أنياب... إنّك تعلم، دون شكّ، ماذا يصنع باليرابيع...

ثمّ كشّر له وواصل وعيناه في عينيه:

ـ الحرباء، عندما يقتضي الحال، تغيّر ألوانها لتختفي عندما يداهمها الخطر... وأنت، إلى الآن، في بحبوحة من العيش ، تتقلّب كما تشاء، وتنقلب من حيوان ضار إلى حيوان فتّاك، ولا تهمّك البقيّة الباقية من عباد الله... يا لك من ثعبان تحسن الانسياب في سكون.. وتتقن الحسابات و«التّكنبينات»... كلّنا نعلم بالمرابيح وما فوق المرابيح وما تحتها، وعمليّات التغطية، وما يمرّ مرّ الكرام في الحسابات الجارية والمجمّدة عندما توقّع على ما توقّع من العقود، وتبرم ما تبرم من الصفقات... ثمّ سفرك للخارج ليوم أو يومين لأسباب لا نجهلها، أهمّها الكشف عن حسابات بالدولار والفرنك الفرنسي والسويسري والبلجيكي وعمّا قريب يدخل اليان الياباني في حيّز مداراتك... واللّقاءات مع الحبيبات... المرتّب الشهري لا يساوي ثمن زجاجة وسكي تطلبها أثناء سهراتك في نزل من النّزل...

وتابع وهو يقترب منه أكثر فأكثر:

ـ نحن نعلم بكلّ خفاياك... إنّك أكلت الدنيا وتسحّرت بها... ولم تبق منها شيئاً لخلق الله. يا لك من حيوان!! ومع ذلك تحسدني على ربطة العنق التي حول رقبتي. أمّا ربطة عنقك هذه المستوردة ـ **ويستولي على ربطة عنق المدير المنكمش في قاع المصعد** ـ فأنا أريد أن أداعبها.. **(يمدّ أصابعه ويعبث بها)**... ربطة عنقك هذه المزدهية الألوان هي آخرُ صيحة هذه الأيام في أوروبا... أداعبها إلى... إلى... وأنت تعرف النهاية... **(ويضغط بجمعه عليه ضغطاً تنزعج له عيناه)**... ها.. ها.. أتأمّل فيك جيّداً اليوم.. وعن قرب، لأوّل مرّة.. أدنو منك... وأكاد أبرك عليك. لا تتحرّك.. ها.. ولا تفتح فمك.. وماذا تقول إن فتحت فمك... ها...

ويواصل متهكّماً:

ـ قل لي... سمعت أنّك تجزّ رأسك في روما، ما شاء الله... ما شاء الله **(يضغط عليه أكثر)** كان عليك أن تقرقطه في إسبانيا... كما تقرقط الكلاب... وتقلّم أظافرك فتاةٌ ترتدي الجيب حدّ الفخذين وهي بين يديك.. لا تغترّ، إنّها مومس، تعرّت لعشرات من قبلك، وستتعرّى لعشرات من بعدك... مومس السيدا، من النوع الرفيع.. من آخر طراز هذا الزمان... ما أجمل الهدايا التي تعود بها.

ويتابع وهو منكبّ عليه، وعيناه في عينيه، ورأسه يكاد يصطدم برأسه:

ـ أخبار الزّالوجة المحترمة... بل آخر أخبارها تتنقّل في الشركة من الطابق السفلي إلى الطابق العشرين.. أين سماؤك ونجومك وأقمارك، تصل إلينا أخبارها كما تصل أخبار الصباح... انقضت لحظات رهيبة كأنّها آخر لحظات عمره... وهو في قبضة يد مبروك الفولاذية... اليوم أطلع لك لسانك ولا أخرج لك روحك وذلك كتنبيه يصعد لك من الطّابق السابع أو كإنذار.. على كلّ اختر أيّ كلمة شئت...

* * *

في النهاية، ضغط الموظّف على زرّ الانطلاق، بعد أن خلّى سبيل المدير... وهو يكشّر في وجهه.

يتحرّك المصعد من جديد، بتأنّ في أوّل الأمر، بعد رجّات وهزّات إذ لم يألف بدوره التوقّف المفاجئ بين الطوابق ثمّ ينساب من جديد في شبه عتمة وموسيقى هامسة...

عندما يصل إلى الطابق العشرين يرنّ جرس نحيف الصوت ينفتح إثره الباب شيئاً فشيئاً على صالون فسيح أنيق... ولوحات زيتيّة معلّقة على جدران رمادية... تكسوه موكات من النوع الرفيع، لونها أزرق سماوي...

ـ تفضّل سيّدي المدير...

ويفسح له بالخروج...

اختِفَـــاء

مصطفى الكيلاني

من الثقب ينحصر فضاء الغرفة في إطار فولاذيّ.

هناك في الركن المقابل يجلس بِجُثَّتِه المُتْعَبَة وأمامه طاولة عليها كأس وقارورة وصحن كَأَنَّ فيهِ حبّات زيتون وقِطَع جبن صغيرة وهيكل سمكة مشويّة يتناثر قَريباً منه فُتَاتُ لَحْم.. الوجه نِصْف مُخْتَجِبٍ بين الجدار المُقابِل وبين الظلال المتكدِّسة حذو النافذة المُغْلَقَة...

تحْت الطاولة شَبَحُ قطّةٍ سوداء يَتَمَطَّط وٱلذَّنَب إلى أَعْلَى تَمُرُّ مِنْ بَيْن رجليه وتتعمّد التمسُّح بهِمَا ثمّ تهمّ بالنهوض مستنِدَةً بساقيها الأماميّتين إلى ركبتيْه فيدفعها بيده إلى الأسفل.. كأنّها تموء وتتراخى في انكسار ثمّ تختفي قريباً منه كي تُعيد الكرّة بعد حين..

لسان الشمعة يلفظ دخاناً رقيقاً ينعكس على القارورة نصف الفارغة خيطاً يلتوي ويسيح على الزجاج.

الزجاج مَجَرَّة نائية تتراءى نجومها حبّات رمل متناثرة، ولسان الشمعة براكين، والظلال بِحار ظلْمة خَلْفَهَا بِحَار. قَدْ لاَ يُفَكِّرُ الجالس هناك في شيء مُحَدَّد. جثّته المُتْعَبة في غيبوبة الموت نهر عظيم ينحدر من قمم الجبال، ويمضي السيل كأنّه نزيف كَوْن يسقط في هوّة بلا قرار.. تنهدّ المدنُ الأحلامُ الذكرياتُ وجوهُ الأطفال الصّبايا السّاعاتُ الأيّامُ الأعوامُ الدّهورُ الظّلال الشموسُ الزغاريدُ الأعراسُ المآتمُ الدُّولُ الحكوماتُ الكواكبُ المجرّاتُ البحارُ الفصول..

كأنّه يرفع إلى السقف رأسه أو يهمّ بحركة مّا يطرد بها مخاوف قديمة تستيقظ فيه بين سجن الغرفة والفجر الّذي سَيَأْتِي.. «هل يصبّ كأساً أخرى يُوقِفُ بِها زَحْف الظلال؟»! يده المرتعشة ترتفع ثمّ تنخفض وتنسكب من بين الأصابع قطرات أو كذلك بَدَا المشهد للرّائي من خلال الثقب..

الغرفة مستطيلة لاَ يُرَى منها في الإطار الفولاذيّ سوى الجالِس مُدْبِراً وطاولةٍ وَقَفَا كرسيٍّ وقارورة وصحن وحبّات زيتون وَقِطَع جبن وهيكل سمكة ومرمدة مملوءة بأعقاب سجائر ونافذة مُغْلقة تغمر شقوقَها بين الحين والآخر موجةُ ضوء. وترتعش الستارة. لعلّه المطر يركب العاصفة ويُلاحِق الرعد، والسماء بَحْر ظلمة وبروق والذاكرةُ شارعٌ قَفْر إلاّ من قطط المزابل ومومسات آخر اللّيل والسكارى والوحل وارتعاشة الماء على الإسفلت تحت أضواء الفوانيس الشاحبة.

الثقب هو ذاتُه. حينما نظر إلى الدّاخل في آخر مرّة أبصر طاولة عليها صحن كأنّ به حبّات زيتون جافّة وهيكل سمكة، وعلى الحافّة قارورة فارغة ومرمدة مملوءة بأعقاب سجائر وأعواد ثقاب مُسْتَعْمَلة، وفي الجدار المقابل نافذة مُغْلَقة تَخَرَّقَتْ ستارتها وعلاها الغبارُ وخيوط العناكِب، وفي أسفل الطاولة بين الثقب وتلك الأشياء كرسيّ تَهَرّمت أخشابه وتكدّست قريباً من هيكلِ قطّةٍ عَظْمِي وبقايا شموع ميّتة. ثقب الباب عَلاَه الصّدأ وَالمكَان تغيَّر وذلكَ الرجل اختفى ولن يعود.

صائفة ١٩٩٣

مدينة الأسوار العالية

التابعي الأخضر

قال الدليل الذي يتقدّمنا: لا ترفعوا رؤوسكم، إحنوا الظهور، فالصعودُ منهكٌ وتسلُّقُ الصخور خطِرٌ، وفي البداية تنفّسوا جيداً! املأوا صدوركم بالهواء فقد تحتاجون إليه، ففي الأعالي يعسر جلبُهُ نقياً. وحتى السّعال لو بادركم فاكتموه عن أنفسكم، ومَن تملّكه منكم فَقَدَ خطاه وثوى حيث هو.

كنا ثُلَّةً من بني الإنسان مختلفي الأعمار، وربما الطبائع. غرضٌ واحد جمعنا: هو اقتحام المدينة ذات الأسوار العالية، وكلٌّ في نفسه أملٌ وفي مخيّلته أحلام. فغرضي أنا مثلاً أن أغسل أيام عمري وأنشرها على أسوار المدينة، فتكتسب جدّتها وأتذوّق طعم الزمن وهو يتوقف أمامي دون حراك وكان قبلها يمرُّ سريعاً حتى لا أتبيّن لونه.

«اقتربنا من النقطة التي لو جاوزناها لأمِنّا طريقَ الصعود»، قال الدليل ذلك، وأردف بعد أن صعّد بصره في وجوه الجميع:

ـ تخلّصوا من بعض أمتعتكم. ابحَثوا في جيوبكم عمّا يثقلكم. انفضوا الترابَ عن أرجلكم.

وإنّني لأنظر مِن تحت رجليَّ فأرى أنَّ الأرض ابتعدتْ وكأنني إلى السّماء أقرب. وكدتُ أُصاب بدوار.

وفي المحطة استراحوا، تمددوا على الأرض، باحوا بأطوالهم وقلت وأنا واقف: لأسأل نفسي حتى الآن عن...؟

وقاطعني صوت الدليل: ألم تتعهّد بأن لا تتحدّث إلا متى بلغنا الأعالي وامتلكنا حرية التنفس، فتقدر وقتها على الكلام؟ كل الكلام وقتها يكون مباحاً.

وسأل شاب وكأنه يحدث نفسه:

ـ أنا لا أحمل قضية. فما رحلتي إلا من أجل أن أُرغم نفسي.

وأشار الدليل إلى المتكلم قائلاً:

ـ انتهتْ رحلتك أنت. قلتَ ما لا ينبغي قوله في موقع لا يُسمح فيه بالكلام. ثِقْ أنك أصبحت معاقاً: فلا أنت بقيت حيث أنت، ولا واصلت الرحلة. ولقد رأيتُ في بؤبُؤَيْ عينيك أشباحَ أناس آخرين. لقد أسقطتَ أمتعتك ونسيت ما تساقط من طبائعك.

وقلتُ دون وعي أُناصر الرفيق الشاب:

ـ لقد كنتَ في أول الرحلة دليلاً. فماذا أصابك حتى تصبح آمراً؟. هل كنت تتصيّد القوافل لتصبح عليها حاكماً؟